«البحث في العلاقات بين اللغة العربية واللغات الافريقية : واقعه وآفاقه»(★)

أحمد العايد

تـونس

إن بلدان افريقيا جنوب الصحراء بلدان حدودها اللغوية والثقافية متداخلة تداخل شعوبها التي لا تتقيد ضرورة بالحدود السياسية إذ للخمسين دولة افريقية نجد ما بين 800 و1000 لغة أو لهجة متداولة.

ومن هذه اللغات اختير في الملتقى حول العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية المنعقد بداكار شهر أبريل 1984 تركيز الأبحاث على اللغة العربية وست لغات افريقية : الوولوفية والماندكية والفولانية والهوسا واليوربا والسواحيلية باعتبارها مستعملة في القارة الافريقية غربيها وشرقيها شمال الصحراء وجنوبها.

وفي الحقيقة، ان العلاقات الحالية بين اللغة العربية واللغات الافريقية ليست الا حلقة من حلقات الاتصال والتبادل بينها منذ بدء الإسلام أي منذ ثلاثة عشر قرنا، وما ملتقى داكار إلا حلقة علمية أتت في ابانها، ثلاثون سنة تقريبا مرت على استقلال السودان والمغرب وتونس وخمس وعشرون سنة تقريبا مرت على استقلال أغلب البلدان الافريقية السوداء وموريتانيا والجزائر وثماني سنوات مرت على استقلال جيبوتي، إذن التقى باحثون من عالم به اثنتان وعشرون دولة عربية تسع منها افريقية : مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان والصومال وجيبوتي الأربع الأخيرة لها أوضاع ثقافية خاصة أي تتعايش فيها العربية ولغات افريقية أخرى تحت اشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جهاز التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الاسلامية)، مع زملائهم من دول افريقية كثيرة تحت اشراف «المعهد الثقافي الافريقي بداكار»، وليس من باب الصدفة أن تجتمع منظمتان دوليتان عربية وافريقية لأول مرة أفارقة وعربا مؤرخين وعلماء اجتماع ولغويين للتباحث في قضايا الاتصال بين اللغات الافريقية واللغة العربية في داكار عاصمة السنغال أرض اللقاءات والمشاريع في العلوم الانسانية عامة واللسانية خاصة، لاسيما وأن 4 / 3 من مساحة العالم العربي توجد بافريقيا وأن 80٪ من العرب يعيشون بأفريقيا وأن العرب يمثلون 53،28٪ من سكان القارة الافريقية.

إذن أسباب علمية عديدة حملت منظمي الملتقى على اختيار هذه اللغات الافريقية الست.

أما اللغة الافريقية الأخرى موضوع الملتقى فهي العربية، لماذا اختيرت أو ما صلتها باللغات الافريقية الأخرى؟ وكيف انتشرت في افريقيا؟.

عن هذه التساؤلات يقول الدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في

(★) تلخيص للبحث الذي ألقي في الملتقى العربي الافريقي حول العلاقات التاريخية بين اللغة العربية واللغات الافريقية بدكار من 9 إلى 12 أبريل 1984.

افتتاح «ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية» (فبراير 1981 بالخرطوم) إن العرب جزء من افريقيا منذ كانت وكانوا وفجودا متكاملا جغرافيا وبشريا فهما يلتقيان في الزمان ويلتقيان في المكان ويلتقيان في السعي وقد بنوا معا حضارة مشرقة ولم يدخل العرب افريقيا غازين وانما تفاعلوا وامتزجوا وأسسوا دولا مشتركة وكانت الجامعات الافريقية العربية والمؤسسات العلمية في افريقيا من الروافد الكبرى للثقافة العربية وقد تبنت اللغات الافريقية الكبرى الحرف العربي وانتجت بها في مختلف المعارف انتاجا رفيع المستوى وهو انتاج قائم ومن الافارقة علماء هم موضع اعتزاز الثقافة العربية والاسلامية ... والاسلام امتد في إخاء وتعاون ، وقد ظلت اللغة العربية وهي أكبر اللغات الافريقية وأقدمها كتابة ، لغة العلم والثقافة لأكثر من ثمانية قرون حتّى مطلع القرن .

حقا التقى العرب بالافارقة بشريا في المكان والزمان فلفظة «السودان» عند الجاحظ (776 — 868) تطلق على كل السود : و«السودان» يعدون الزنج والحبشة فزان وبربر والقبط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والصين ، كذلك لفظة «السودان» عند الجغرافيين العرب كانت تشمل شعوب غرب افريقيا من تكرور وفلاتة وغيرهما وكلمة «افريقية» (أي تونس عهد الرومان) أصبحت تطلق في العصر الحديث على القارة الافريقية كلها فلفظة «سودان» تشمل اذن منذ القرن الثامن للميلاد ما يسمى اليوم شمال وجنوب الصحراء وشرق افريقيا وغربها .

أما اتصالهم الزماني فحيثما حل العرب امتزجوا بالسكان الوطنيين ونتيجة تلاحمهم انهم أثروا فيمن اتصلوا بهم ثقافيا ولغويا لاسيما وحديث الرسول ﷺ مرجع لكل المسلمين : «يا أيها الناس ان الرب واحد وان الأب واحد وان الدين دين واحد الا وأن العربية ليست لكم بأب ولا أم انما هي لسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي» .

كذلك نلاحظ أن اللغة العربية دخلت إلى القارة الافريقية شمال الصحراء وجنوبها مع الاسلام فأصبح المسلمون يستخدمونها في قراءة القرآن وأداء الواجبات الدينية وتفهم الشريعة الاسلامية وكان منهم أئمة مساجد ومعلمو الكتاتيب والقضاة والفقهاء والشيوخ في الزوايا والمتصوفون والمرابطون والعلماء في المدارس .

ولما انتشر الاسلام في افريقيا اتسع استعمال اللغة العربية إلى مجالات أخرى غير مجال الدين فصارت لغة المراسلات الرسمية بين الملوك والسلاطين أي بين ذوي السلطان الأفارقة والعرب في شمال افريقيا أو في الشرق الأوسط من جهة وبينهم من جهة أخرى ثم لم تقتصر على أوساط المتعلمين كلغة دين وأدب ومراسلة بل انها كانت لغة الأسر الارستقراطية والتجارة والمعاملات اليومية بل إنها كانت لغة تخاطب (Lingua Franca) بين الجماعات المختلفة اللسان مثل الطوارق ... والهوسا والفولاني واليوربا .

وكما لا يمكن فصل تاريخ البلدان الافريقية عن الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فإنه لا يمكن فصله عن الحركة الاستعمارية التي كانت فترة عمل تبشيري مكثف وادخال مفاهيم ادارية واجتماعية واقتصادية وتربوية جديدة مما آل إلى فرض لغة أجنبية ومضايقة الثقافة العربية الاسلامية واللغة العربية إذ سلكت كل من السلطات الاستعمارية الفرنسية والبريطانية سياسة خاصة بها ازاء التعليم الاسلامي والعربي .

إذن عوامل دينية وعلمية واقتصادية وسياسية جعلت اللغة العربية تتطور من لغة دين إلى لغة تخاطب إلى لغة تعامل في البلدان الافريقية التي استعملت الحرف العربي منذ انتشار الاسلام بها حوالي ثمانية قرون وقد استعمل الأوربيون هذه الحروف في بداية العهد الاستعماري : مثلا نجد لرو (Leroux) في معجمه فرنسي هوسا — هوسا فرنسي : يكتب اللفظة بالحروف العربية وأمامها يكتب اللفظة بالحروف اللاتينية مع ترجمتها إلى الفرنسية وقد رسم

الأصوات الخاصة بالهوسا برموز تؤديها لكن السلط الاستعمارية فرضت الحروف اللاتينية فنجد سنة 1907 السلط البريطانية تفرض في التعليم الابتدائي اللغة السواحيلية بالحروف اللاتينية مما أدّى إلى شبه مقاطعة المسلمين للمدارس الحكومية واستمر التعايش بين الحروف العربية والحروف اللاتينية إذ نجدها في الصحف النيجيرية والكينية في الثلاثينات ، ثم تقرر رسم اللغات الافريقية بالحروف اللاتينية وتوحيد رموزها في ملتقيات باماكو (1966) وكوتونو (1975) ونيامي (1978) واعتمدت أخيرا أبجدية افريقية مرجعية موحدة في نيامي نشرتها سنة 1980 ادارة دراسات الثقافة (قسم الثقافات الافريقية) باليونسكو .

ولكن رغم هذه القرارات مازلنا نجد الحرف العربي يؤدي رسالته في التطلعات الأدبية ، والثقافية ، قال شيخ الاسلام الحاج ابراهيم نياس السنغالي في مقالته : «اللغة الوولوفية بالسنغال أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية» ثم يأتي الحرف العربي الذي اتخذه المسلم السنغالي الافريقي منذ قرون لتدوين ما يريد بلغته الوولوفية ... وقد ظهرت أخيرا بادرة طيبة تستحق التشجيع وهي أن بعض المثقفين المسلمين من شبابنا قد جنحوا إلى وضع مؤلفات بلغة وولوف ، إذ علمنا أن الاتصال بين المجموعات البشرية الافريقية والعربية تم سلميا بواسطة نشر الاسلام ولغة القرآن الكريم عن طريق المبادلات الثقافية والتجارية لا عن طريق الغزو العسكري والاحتلال السياسي ، أدركنا أن قوتها الفطرية هي التي جعلت اللغات الافريقية الأخرى تقترض منها .

ويمكن في ضبط منهجية التحريات الميدانية لحصر الاقتراضات الافريقية من العربية الرجوع إلى تجربة حصر الرصيد اللغوي الوظيفي للمرحلة الأولى من التعليم الابتدائي الذي أنجز في بلدان المغرب العربي وخاصة إلى الرصيد اللغوي العربي الذي هو بصدد الانجاز بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ولاشك أن هذه المدونة (corpus) سوف تمكن الباحثين من دراسة الاقتراضات كمشكلة لسانية أي مدى ادماج اللفظة (intégration) في النظام اللغوي من حيث الأصوات والصرف والنحو والمعجم وتوزيع هذه الألفاظ حسب مجالات مفهومية نذكر بعضها : الدين ، الأخلاق ، العادات والتقاليد ، التربية والتعليم ، الأدب ، التجارة ، اللباس والأزياء ، الطعام ، الفن المعماري ، الفنون بأنواعها ....

ولاشك أن دراسة هذه الاقتراضات سوف تبرز مدى الاتصالات بين الحضارتين العربية الاسلامية والافريقية ، وفي واقع الأمر أن بحوث الملتقى سوف تسهم في حصر ميادين الاتصال التاريخي الجغرافي واللغوي بأبوابه المختلفة وستثري مجالات اقتراض اللغات الافريقية من اللغة العربية وحتّى الفرنسية في أفريقيا الغربية من العربية : الا نجد كلمات من أصل عربي ضمن الفرنسية بأفريقيا .

وفي واقع الأمر الاتصال بكل المعنيين بالأمر من مؤرخين ولغويين ضروري فربما يستعان بالقائمة المدرجة في البيبليوغرافيا الملحقة بكلمة الأستاذ أحمد العايد والمتعلقة بالهيئات الدولية أو الفرنسية أو الأوربية أو الافريقية أو العربية المهتمة بالافريقيانيات لكي تربط الصلة بذوي البحوث في الصدد .

من المشروعات المفيدة التي اقترحها اجراء مسوح :

ا) **في البلدان العربية** : للأقسام الافريقية بالمؤسسات العربية التدريسية منها والبحثية ولكل القنوات الثقافية التربوية .

ب) في البلدان الافريقية :

1 — مسح للمراكز الثقافية العربية .

2 — مسح للكتابة بالعربية في افريقيا والنقش والحفريات .

3 — مسح للتعليم الديني غير الحكومي (ولا ننسى دور الجمعيات الاسلامية ودور الكتاب في التعليم بافريقيا) .

4 — ضبط قائمة المطبوعات التي كتبت باللغات الافريقية بالحرف العربي .

5 — عمل ثبت (بيبليوغرافيا) للمخطوطات العربية بافريقيا والمخطوطات التي كتبت باللغات الافريقية بالحرف العربي سواء أكانت في المكتبات الافريقية أم العربية أم الأوربية لأنها جزء من تاريخ الشعوب الافريقية والحضارة العربية الاسلامية المشتركة بين المجموعتين الافريقية والعربية .

وربما تؤدي بحوث المجموعتين إلى تأليف دليل عن الخصائص المعجمية العربية بالبلدان الافريقية ودليل عن الخصائص المعجمية الافريقية بالبلدان العربية تراعي فيها هذه التحريات الميدانية الآنية (Synchroniques) المذكورة وتراعي فيها أيضا العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية حسب الأزمنة والأمكنة أي الدراسات الزمانية (Diachroniques)

وهذه الأعمال المشتركة المخططة ينبغي أن تشمل دراسات اجتماعية لسانية ودراسات نفسية لسانية ودراسات تربوية أخرى متكاملة .

إن كل هذه الدراسات المعجمية (الآنية والزمانية) والدراسات الاجتماعية والنفسية والتربوية ضرورية لتأليف معاجم ثنائية عربية — لغات افريقية تأخذ في الاعتبار المستعمل الافريقي لها .

لكن إلى أن تنجز هذه البحوث الطموحة قد أشير إلى مشروع معجم هو بصدد الانجاز تحت اشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من قبل لجنة من خبراء معجميين وباحثين في قضايا اللغة العربية ومدرسين لغير الناطقين بها بالخصوص ، وقد جاء في وثيقة اعداد هذا المعجم المسمى «المعجم العربي الأساسي» (٥) أن يكون مخصصا للناطقين بغير العربية ممن بلغوا مستوى متوسطا أو متقدما في دراستها وللمدرسين والأساتذة منهم وللطلبة الجامعيين في أقسام الدراسات العربية والاسلامية والمثقفين منهم بوجه عام وينوي المشرفون على المنظمة أن يترجموا هذا المعجم الأساسي إلى اللغات الافريقية الرئيسية .

(٥) صدر الجزء الأول . عام 1983 .

كذلك أشار إلى أهمية ندوة حول الحرف العربي واللغات الافريقية يدعى إليها خبراء من دول إسلامية في آسيا وأوربا ، من ايران وتركيا وباكستان وأفغانستان وأندونيسيا والفيليبين والاتحاد السوفياتي ، هذا بالإضافة إلى خبراء أفارقة وعرب .

1 — تكوين الجمعية الافريقية العربية للدراسات اللغوية والثقافية

(Association d'Etudes Linguistiques et Culturelles Afro Arabe) AELCAA

2 — وتكوين الجمعية العربية الافريقية للدراسات التاريخية والانسانية

(Association d'Etudes Historiques et Anthropologiques Afro Arabe)

3 — بعث مشروع المجلة الافريقية العربية للدراسات اللغوية والثقافية

(Etudes Linguistiques et Culturelles Afro Arabe) (ELCAFRAB)

4 — بعث مشروع المجلة الافريقية العربية للدراسات التاريخية والانسانية

(Etudes Historiques et Anthropologiques Afro Arabe) (EHAFRAB)

إن هاتين الجمعيتين اللتين يدعى لها سوف تسهمان في اجراء بحوث عن الانسان الافريقي تاريخيا وانسانيا ولغويا (نظريا وتطبيقيا) وتربويا وثقافيا عامة وسوف تسهمان في أنشطة المعهد الثقافي العربي الافريقي الذي تنشئه قريبا منظمة الوحدة الافريقية وجامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) .

ان حاضر البشرية ومستقبلها تساهم في نحته كل الأمم من أخذ وعطاء في تعاون بين الثقافات وحوار بين الحضارات ، فأماني الحاضرين أن يتمخض الملتقى عن معلومات تسهم في اللقاء بين الأفارقة والعرب وتضع أسس الائتلاف في الاختلاف ودعائم التكامل العلمي الجميل وهذا ما أبرزته التوصيات المرفقة .

توصيات الملتقى :

يتقدم الملتقى العربي الافريقي حول العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية : المنظمة العربية للتربية

والثقافة والعلوم والمعهد الثقافي الافريقي بالتوصيات التالية :

1 ـ السعي لاقامة هيكل مؤسسي دائم يجمع الباحثين الأفارقة والعرب المتخصصين في المجالات اللغوية وعلوم التربية والتاريخ والعلوم الاجتماعية وعلم الاجناس .

ا) وذلك بتشجيع وتنمية الدراسات الوصفية والتقابلية في اللغات الافريقية واللغة العربية بقصد انتاج النصوص التعليمية الحديثة والمعاجم الثنائية الافريقية العربية .

ب) وانشاء دورية علمية تكون منبرا لنشر نتائج البحوث اللغوية والبحوث في العلوم السابقة الذكر .

ج) تشجيع التبادل بين الباحثين والأساتذة الأفارقة والعرب عن تمويل هذا التبادل وتيسير مداولة الوثائق بين المعاهد الافريقية والعربية .

2 ـ تشجيع ودعم أقسام الدراسات العربية في الدول الافريقية ، وأقسام الدراسات الافريقية في الدول العربية ودعم القائم منها .

3 ـ جمع المخطوطات العربية والمخطوطات المكتوبة باللغات الافريقية بالحرف العربي ، وفهرستها ونشرها ـ ما وجد منها في افريقيا وأوربا وغيرهما باعتبارها جزءا من التراث التاريخي والثقافي واللغوي للشعوب الافريقية والعربية .

4 ـ تنظيم ندوة حول تطويع الأبجدية العربية لكتابة اللغات الافريقية بطريقة علمية .

5 ـ تنظيم ملتقيات دورية في مختلف ميادين العلوم الاجتماعية والانسانية .

6 ـ يدعو المشاركون في الملتقى المعهد الثقافي الافريقي والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى الاهتمام بنشر بحوث هذا الملتقى ونتائجه على أوسع نطاق في القارة الافريقية ، والبلاد العربية ، وعالميا ، وان يسعيا إلى متابعة تنفيذ توصياته . كما يدعونهما إلى تعزيز التعاون العربي في المحافل الدولية لتجد الأفكار والتوصيات التي عبر عنها الملتقى الاهتمام اللائق بها في أعمال المنظمات الاقليمية والدولية أن يشارك فيها الأفارقة والعرب .

7 ـ ان المشاركين في الملتقى يعبرون عن أسفهم العميق لقرار الولايات المتحدة الامريكية بالانسحاب من منظمة اليونسكو متمنيين العدول عنه ، ويوجهون نداء إلى المفكرين والمثقفين والعلماء والتربويين للعمل على انجاح المثل العليا التي تضمنها الميثاق التأسيسي لليونسكو وعلى تعزيز التعاون الدولي على أساس العدل والتضامن والاحترام المتبادل ، ويعربون للمدير العام لليونسكو عن تقديرهم للعمل الهام الذي تقوم به اليونسكو في ظل ادارته الحكيمة ويؤكدون له تضامنهم وتعاونهم الكامل معه .

8 ـ يسجل المشاركون في الملتقى عظيم شكرهم وتقديرهم للمعهد الثقافي الافريقي وللمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ولمديريهما العامين، الأخ الأستاذ أحمد مالك قاي ، والأخ الأستاذ الدكتور محي الدين صابر على الوعي للضرورة التاريخية للقاء المفكرين الأفارقة والعرب للحوار الموضوعي مدخلا لتطوير العلاقات الافريقية العربية المصيرية ، ولتوظيف قدراتهم في خدمة قضايا العلم والتنمية والتحرر ، ويعلنون عن استعدادهم لمواصلة هذه المسيرة لما تنطوي عليه من الوفاء لدين مستحق للشعوب الافريقية والعربية .

9 ـ ان المشاركين في الملتقى الافريقي العربي حول العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية يستشعرون واجبا محببا لتسجيل شكرهم العظيم لفخامة الرئيس عبده ضيوف وتقديرهم له لكريم رعايته للمتفاهم ويقدمون شكرهم العميق للشعب السنغالي العزيز الذي يؤدي دورا كبيرا في تعزيز الحوار الاخوي القائم بين البلدان الافريقية والعربية .

ان هذا الحوار الذي يفتح الطريق إلى تحقيق التقدم المحقق لآمال شعوبنا لمثال يحتذى في ارساء أسس التفاهم والإخاء والتعاون الدولي .